

إقبال العبد نحو ربه بالدعاء



الدُّعاء حلقة الوصل بين العبد وربِّه، فهو توجه من العبد نحو ربِّه وإقبال من ربِّ العزة نحو عبده. قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «أحبُّ الأعمال إلى الله في الأرض الدُّعاء». فالدُّعاء فعل الجميع بلسان وقلب، عالم وجاهل، أسود وأبيض لا ينحصر في مكان ولا زمان ولا مذهب وقومية، ولا بصغير وكبير: (هُوَ اللَّيْسُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الحشر/ 24). هو صلة الوصل بين العبد والمعبود، هو شعار الحرِّية والسيادة، وهو لب الإيمان وأساس التقوى ونهج العبادة. فكلُّ ما يكتب عن الدُّعاء هو قطرة في بحر عطائه ولا يمكن لنا إلا الغور في أعماق هذا البحر واستخلاص درة ثمينة من جوفة لنزيهٍ من قلوبنا وعقولنا بها، نجعلها مناراً لحياتنا في الدُّنيا ومزرعة لآخرتنا. إنَّ للدُّعاء شروط يجب الالتزام بها لتحقيق المراد، حيث إنَّ الدُّعاء يرد القضاء، فيجب على المسلم التزام أوامر الله عزَّ وجلَّ والبعد عن المعاصي، وحسن الظن بالله عزَّ وجلَّ والتيقُّن من الإجابة، والإلحاح في الدعاء، وتحريُّ أوقات استجابة الدعاء، رغم أنَّ الدعاء لا يقتصر على وقت أو زمن، ويستطيع العبد أن يدعو ربه باللغة التي يريدها ويطلب منه ما يشاء ويتذلل ويخشع ليستجيب الله له الدُّعاء. وكلما تكون حاجة الإنسان إلى الله أعظم، وفقره إليه تعالى أشد، واضطراره إليه أكثر، يكون إقباله في الدُّعاء على الله أكثر. فإنَّ الحاجة والاضطرار يلجئان الإنسان إلى الله، ويقدر ما يشعر بهذه الحاجة يكون إقباله على الله سبحانه وتعالى. فالدُّعاء إقبال على الله، ومن أبرز مصاديقه الإنشاد والإرتباط بالله.. ولا يوجد في العبادات عبادة تُقرَّب الإنسان إلى الله أكثر من الدُّعاء.

وهذا الإقبال هو حقيقة الدُّعاء وجوهره وقيمه ورمضان المبارك هو شهر الدُّعاء، حيث جاءت في سياق آيات الصيام لفظة عجيبة تخاطب أعماق النفس، وتلامس شغاف القلب، وتسري عن الصائم ما يجده من مشقة، وتجعله يتطلع إلى العوض الكامل والجزاء المعجل، هذا العوض وذلك الجزاء الذي يجده في القرب من المولى جلَّ وعلا، والتلذذ بمناجاته، والوعد بإجابة دعائه وتصرعه، حين ختم الله آيات فرضية الصيام بقوله سبحانه: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَا يَسْتَجِيبُوا لِي وَلَئِيْؤُا مِنِّي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُوْنَ) (البقرة/ 186)، فهذه الآية تسكب في نفس الصائم أعظم معاني الرضا والقرب، والثقة واليقين، ليعيش

معها في جنبات هذا الملاذ الأمين والركن الركين.

إنّ الأدعية التي نقرأها هي في الواقع مدرسة لتعليم ولتربية المجتمع الإسلامي، حيث تقوده إلى تطهير القلب والرغبة نحو المعبود وقصده والاعتماد عليه والانقطاع عن سواه، وتجعله يعيش روح الأمل في غفران ذنوبه وتجديد ثوب الحياة بقبول توبته والاستعانة والاستغاثة بربّ العزة. ما يقرأه الإنسان مُقَوِّلبُ بالدُّعاء لكنه يحمل السُّبل المتنوعة التربوية لإيجاد مجتمع موحد ونموذجي.

وللدُّعاء في حياة المسلم أهمية منها:

- يعتبر عبادة عظيمة يحصل المسلم من أداؤها على الأجر والثواب.
- يقربُ العبد من ربّه ويفتح الأبواب المغلقة، ويحقق للعبد ما يتمنى.
- يردُّ المصائب والشرّ الذي من الممكن أن يحل بالمسلم، فالدُّعاء يرد القضاء.
- يرفع غضب الله عزّ وجلّ، فإن سبحانه وتعالى يحب أن يسمع صوت عبده وهو يناجيه.
- يحمي المسلم من التكبر، حيث أنّ سبحانه وتعالى نهانا عن هذا الخلق السيء.
- يعتبر من أهم خطوات التوكل على الله عزّ وجلّ، حيث أنّ المسلم حين يدعو ربّه يكون متوكلاً عليه.

نقرأ في جانبٍ من دُّعاء أبي حمزة الثمالي: «أعوذُ بِكَ من زَفْسٍ لا تقنعُ ومِن بَطْنٍ لا يَشيعُ وقَلْبٍ لا يَخشعُ ودُّعاءٍ لا يسمعُ وعملٍ لا ينفعُ وصلاةٍ لا تُرفعُ. وأعوذُ بِكَ يا ربِّ على نفسي وديني ومالي وجميع ما رزقتني من الشيطان الرجيم».

فالعبد المتضرّع يشعر بلذّة وطراوةٍ في مناجاته لا يدركها أحدٌ سواه، لأنّ الدُّعاء يسحر قلبه ويأسره بحيث لا يبقى فيه مجالٌ لملذّات الدُّنيا الزائلة وشهوات نفسه الحيوانية التي لا تتغلغل إلا في النفوس الخاوية البعيدة عن حقيقة الذِّكر: «مَنْ ذَا الَّذِي ذاقَ حَلَاوَةَ ذِكْرِكَ فَتَرَامَ مِنْكَ بَدَلًا».

وعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «إنّ الله تعالى أوحى إلى نبيّه داود (عليه السلام): إنّ أدنى ما أنا صانعٌ بهم أن أنزع حلاوة مناجاتي عن قلوبهم». فيا أيّها العبد المسكين الذي خدعته الدُّنيا بغرورها وغرق في حل شهواتها، التحق بركب الصُّلحاء والصّادِّقين وتضرّع إلى بارئك وانقطع إليه متوسلاً به وبأفضل خلقه محمّداً وأهل بيته الكرام وناجه: «إلهي أدقني حَلَاوَةَ ذِكْرِكَ».